الفصل الخامس
"أمر غير متوقع"

في صباح اليوم التالي.. دلف طفلٌ صغير في عمر الأربع سنوات إلى غرفة هشام متسلقيًا سريره حتى استقر بجانبه، ورفع عنه الغطاء هاتفًا بطفولة تآكلت معها بعض حروفه:

- يا هثام.. يا هثام اصحَى.. أنا جيت.

تململَ هشام بفراشه واضعًا الغطاء فوق رأسه؛ فتلك المهمة هي أصعب ما تكون على الإطلاق، وهى إيقاظ هشام، إلا من اثنين؛ اتصالٌ من عمله أو ذلك الطفل الذي لا يكَلّ من إيقاظه ولا يستسلم لعناده؛ فصرخ بأذنه:

- يا هثاااااام.

نهض هشام فزعًا، على الأغلب قد خسِرَ طبلة أذنه، جلس على فراشه يستمع إلى ضحكات ذلك الطفل المشاغب؛ فحمله بحركة مباغتة يضربُه بخفة مداعبًا، ثم صاح به:

- ياض يا ابن ال... خرَمْتِلي وِدني يخرب بيتك.

صرخ الطفل متضاحكًا:

- خلاث خلاث، والله يا خالو آخر مرة.

هشام: دلوقتى بقيت خالو!

أفلته هشام من بين يديه، ثم قال: إيه اللي جابَك ع الصبح كده يا عمر باشا.

عدل عمر من هيئته قائلًا:

- ماما يا ثيدي اتخانقِت مع بابا بالليل، وقالتله أول ما يطلع الثُّبْح همشِي وأثِيبْلَك البيت.

هشام وهو يضرب كفًا بكف:

- الله يخرب بِيت جنانِك يا حنين.. مجنونَة أمَّك دي.

هز عمر رأسه مؤكدًا: آه.

ضربه هشام على رأسه برقة يشد وجنتيه قائلًا:

- آه! ياض احترم أمَّك شوية، أنا أقول انتَ ماتقولش.. ده جيل إيه المهبب ده!

خرج هشام من غرفته مشعَث الشعر متثائبًا، سمع صوت قرقعة الأطباق والطناجر يتردّد في المطبخ؛ فوجد منيرة منشغلة بتجهيز طعام الإفطار بين المطبخ والسفرة، وفي المنتصف ابنتها تذرَع الطرقة ذهابًا وإيابًا تبكي وتشكي:

- شُفتي بقى يا ماما، كان لازم أسيبْلُه البيت عشان يعرف إن الله حق، يورِّيني هيعمل إيه النهاردة من غيري.

منيرة: ولا أي حاجة، هيبقَى مبسوط وفرحان ٢٤ قيراط، على الأقل خلص من زنك وأنا اللي لبِسْت فيه.

امتعضَت حنين وضمَّت ذراعيها بتذمر، حينذاك سمعَت صوتَ أخيها معاتبًا: يا بت انتِ مش هتتهَدِّي بقى؟! كل يوم والتاني سايبة بيتك وغضبانة!

حنين بدفاع:

- وهو أنا يعني بَغْضَب من غير سبب، انت ماتعرفش هو عمل إيه؟

لوى فمه متسائلًا: عمل إيه؟

حنين:

- البيه امبارح بعد ما اتعشّينا وعملتله الشاي، وبعدها دخلت بقى أغسل المواعين ونشَرْت هدومه و...

هشام بملل:

- انجزي يا حنين مش كتب كتاب أمك هو.

في تلك اللحظة تلقَّى حبّة خيار قذفت موجّهة بعناية إلى وجهه، لحقتها منيرة قائلة:

- أمها يا ابن... المرّة الجاية هيبقَى غَطَا الحلة مش الخيار.

ضحك هشام ملطّفًا الأجواء، ثم قال مجاكرًا:

-وهي بنتك هتجيبُه من برّة.. انطقي يا ست حنين غضبانة ليه المرة دي؟

حنين بامتعاض:

- البيه بعد كل ده واحنا داخلين ننام كانت الساعة ١١ بالليل، تتّصل عليه الست سها سَهْوَكَة وقعدوا يرغوا عشر دقايق بحالهم.

هشام بحاجب مرتفع:

- مين سُها سهَوْكَة دي؟

حنين بتريقة: قال إيه زميلته في الشغل.

هشام بمكر: حلوة؟!

حنين: يخرب بيتك هو ده وقته! هلاقيها منين ولا منين يا رب؟!

هشام: خلاص يا فضيحة، طب إيه يعني؟ زميلته في الشغل وأكيد كانوا بيتكلموا في الشغل.

حنين: والله؟! وحَبَك الكلام الساعة ١١ بالليل! ويقولّي شغل مهم.

هشام بحاجب مرتفع: هو كان بيتكلم قُدّامِك ولا من وراكِي.

حنين: قُدّامي، بس...

هشام: مفيش بس، جوزك أنا عارفُه كويس مالوش في الشمال، والراجل اتكلم قُدّامِك.. يعني عداه العيب.

حنين:

- هو انت كده على طول تقف في صفه، لو مضّايقين من وجودي أنا ممكن أمشي آه، آه يا حنين ياللي مالكيش حد ياني.

ضربها هشام على مؤخرة رأسها بهزار، ثم أحاطها بذراعه قائلًا بحنوّ:

- ما أسمعكيش تقولي الكلمة دي تاني، أنا سنَدِك وفي ضهرك دايمًا، وربنا يخليلنا منيرة.. يا هبلة أنا خايف عليكي وعلى بيتك وابنك اللي هتضيّعِيهم بطِيشك ده، ماينفعش ابنك يشوفِك بتتخانقي مع أبوه كل يوم والتاني.

صمَتَ هنيهة، ثم طغَت الكآبة على صوته وهو يضيف:

- الأطفال مابينسوش الحاجات دي يا حنين.

استذكر هشام لحظات نزاع والده ووالدته المستدام، تلك اللحظات التي كانت تؤلِّف من الفزع موجة عارمة تعتري قلبَه؛ فتنتزع منه الطمأنينة والسكينة كلما سمع صوت والديه عاليًا والشجار لا ينتهي، حتى في أحد الأيام سمع والده يدعو على أمه بأن يأخذها الله ليرتاح منها، وكأن السموات قد فُتِحَت في ذلك الحين خصِّيصًا لتستجاب دعوته، فحينما استيقظ هشام وراح يداعِب وجنَةَ أمه ليوقظها لم ترد عليه البتة، وقد راحت في سُبَات عميق طويل إثر السَّكتَة القلبية، ومنذ ذلك الحين وهشام يحمِّل والده ذنب فقدانها وحرمانه منها.

استفاق هشام من ذكريات الماضي على صوت منيرة تقول:

- يلّا الفطار يا ولاد.

وبينما كانوا منهمكين في تناول الطعام، أردفت منيرة:

- هشام، ضروري ترجع على الغدا النهاردة.

هشام باستغراب: اشمعنى؟

منيرة وهي تتناول حبة من العنب:

- أصلي عزَمْت لارا ومامتها النهاردة.

تباطأ في تناول طعامه إثر شعاع من الكآبة تسلّل إليه، بينما نهضَت منيرة لتُحْضِر المياه؛ فمالت عليه حنين قائلة بصوت منخفض:

- الله يكون في عونك.. لسّه أول أسبوع خطوبة وبتعمل كده، أومّال بعدين هتعمل إيه؟

- طب تخيّلي هي بنت خالتِك وبتقولي كده، أنا أعمل إيه؟

- ما هي عشان بنت خالتي وعارفاها بقولّك الله يكون في عونك.. وانتَ الغلطان! سمِعْت كلام منيرة ليه وخطبتها؟

- انتِ يعني مش عارفة زَنّ منيرة وقمصتها.

- إيه يعني! كنت سيبها تزِنّ شوية مش تدبّس نفسك التدبيسة الهباب دي.

جاءت منيرة فجأة هاتفة:

- انتوا بتِتْوَدْوِدُوا بتقولوا إيه؟

هشام ببَكَشْ:

- لا أبدًا، بقول طبعًا جايّ، دي لارا ومامتها جايِّين.

منيرة بلهجة تحذير:

- هشاااام!

هشام: خلاص بقى يا مونمون، هاجي إن شاء الله، وانتِ يا حنين اتّصلي على عماد خلِّيه ييجي يتغدا معانا النهاردة..

ثم أخفض صوته قائلًا:

- وينقذني من الحوار ده.

حنين: لا مابكلّمش...

هشام بحزم: حنين، قولتلِك كلّميه وخليه ييجي، وأنا يا ستي هقرُصْلِك ودنه وهخليهُولِك يعمل بلوك لكل الستات زمايله في الشغل، ارتاحتي كده؟

حنين بتعالٍ مصطنع:

- أصلًا أنا عملتلها بلوك امبارح.

مرر هشام أصابعه بشعره بعنف هاتفًا بغيظ:

- صبرني يا رب.. هي مرارة واحدة.

*****

في منزل جنة:

لم تمر دقيقة نوم واحدة على آل البيت، بل كان يزداد فزعُهم مع الوقت وهم لا يدرون أمرًا عن ابنتهم المفقودة، تؤزّهم الوساوس أزًّا بلا رحمة، تُرى هل أصابها مكروه؟ أم اخطتفت؟ أم.. أم.. أم... إلخ، حتى أحمد لم يسَعْه الانتظار، ونزل يبحث عنها، أين؟ لا يعرف، لكنه لم يستسِغ فكرة المكوث والتواكل.

عاد مالك من قسم الأزبكية بخفي حُنين، هرعَ إليه طارق متشبّثًا بذرة أمل تنفي ما تعكسه ملامح مالك من الخيبة متسائلًا بانفعال:

- ها يا ابني عملتوا إيه؟ الظابط صاحبك ده وصِل لحاجة؟

هز مالك رأسه قائلًا:

- للأسف يا عمي، قال إنه عمل تحرياته في خطّ سيرها للمركز اللي كانت رايحاه وشاف كاميرات المترو، بس ماظهرتش في أي حاجة ولا حد شافها.. بس...

منال بانهيار: بس إيه يا ابني قول؟

مالك بعدم تأكد:

- مش عارف، حسِّيت كده من كلامُه إنه بينيّمني، كأنه عارف حاجة ومش قادر يقولها.

منال: يعني إيه؟ بنتي جرالها حاجة؟

مالك:

- لا يا خالتو مش كده، مش عارف.. بس هو كان بيحاول يطمّني كأنه عارف مكانها، ومع ذلك قالّي احنا مكمّلين في التحريات وأظن قربنا نوصلها، وإنها أكيد بخير..

لم يكمل حديثه حتى رن جرس الباب؛ فهرع مالك لفتحه، فوجئ بشخص لم يره من قبل؛ شاب في بداية العقد الرابع، يرتدي بذلة أنيقة باللون الرمادي، تعكس ملامحه الثقة وكأنه يتمتّع بسلطة ما، بادر مالك متسائلًا:

- مين حضرتك؟

*****

في جهاز الأمن الوطني:

دلف هشام إلى المبنى مارًّا عبر الأروقة يحيّيه الضباط والمخبرون والعساكر، اتجه مباشرة إلى مكتبه، وفتح الباب لا إراديًّا كما العادة دون استذكار أنه هناك فتاة تسكن مكتبه، انتفضَت جنة إثر فتحه للباب محدثًا صوتًا قويًا؛ فنهضَت متسارعة تعدّلُ من ثيابها وتسوّي حجابها، شعرَت فجأة بالدوار لنهوضها

المفاجئ؛ فسقطَت جالسة مكانها ثانية، اتجه نحوها هشام بخطًى ثابتة، واضعًا كلتا يديه في جيبي سرواله، ثم حمحَمَ قائلًا:

- أكيد مش مستنّيّة آخد إذن عشان أدخل مكتبي.

هزت رأسها نافية، ثم طالعته بعينين محمرتين:

- في الحقيقة عايزة أشكر حضرتك إنّك سمحتلي أنام هنا وماباتش في سجن.

رفع حاجبيه يدرس ردود أفعالها، ثم قال بتؤدة وكِبْر:

- ماتاخدِيش على كده يا آنسة اا.. آه جنّة، مش كده؟

طالعته جنّة بازدراء حاولت أن تخفيه، ثم نطقت بانفعال:

-طب ممكن أعرف أنا هفضل هنا لحد امتَى؟ أنا ماعمَلْتِش حاجة، و..

- عملتي ولا ماعملتيش دي هنعرفها، سواء دلوقتي ولّا بعدين.. عامّة عندي شغل أهمّ منك دلوقتي، بس أخلّصه وهرجعلك، بس... أتمنّى ماتكونيش لسّه عند موقفك عشان ماتندميش.

ثم صاح مناديًا: يا مؤمن!

دخل رجلٌ برتبة عسكريّ قائلًا:

- تحت أمرك يافندم!

أشار له بأن يأخذها؛ فصاحت جنة متوسّلة:

- أرجوك يا حضرة الظابط، أهلي مالهُومْش ذنب، أكيد زمانهم قلقانين عليّا دلوقتي ومايعرفوش عنّي حاجة، أرجوك بس حتى أكلمهم.

قالت كلماتها الأخيرة بصوت مخنوق بالبكاء؛ فقال هشام بتحدٍ:

- ما انتِ اللي مش عايزة تساعدي نفسك وتساعديهم.

جنة: انتَ ليه بس مش عايز تصدّقني؟ أرجوك.

أشار هشام للعسكري بأن يأخذها غير آبِهٍ لتوسلاتها، في ذلك الحين دخل سامر يرمقها بتعالٍ، ثم قال:

- هتكمل تحقيق معاها امتى؟

هشام: شوية كده، أهِي مشرّفانا.

سامر بتعجب: ناوي على إيه؟

هشام: أبدًا، بس كده كده هي هنا عشان تعطّلنا عن هدفنا الحقيقي؛ فتضْيِيع وقتنا معاها مالوش لازمة.

سامر: ازّاي بس يا هشام بيه؟ يعنى يبقى تحت إيدينا دليل ممكن يوصّلنا لكارولين ومانستغلوش.

هشام: مفيش أدلة، كارولين مش هبلة عشان تسلّمنا حد يعرف عنها كتير.

سامر: بس على الأقل هنعرف هدَفْها ونقدر نتحرّك على أساسه.

رمقه هشام بنظرة مطوّلة غير مفهومة، ثم قال:

- ده لو كان جنة هي الشخص اللي مستنّي كارولين عشان يساعدها في عمليّتها اللي مش عارفينها لحد دلوقتي.

سامر باضطراب:

- قصدك إيه؟ إنه فيه حد تاني؟

هشام:

- تالت.. الظاهر إن ذاكرتك ضعيفة اليومين دول يا سيادة النقيب، نسيت إن اللي استقبِل كارولين في المطار كان راجل مش بنت.

سامر: بس احنا ماشوفناش وشّه يا فندم.

هشام: ده حقيقى، بس برضُه لو عندَك قوة ملاحظة فالشخص ده كان طويل وعريض..

ثم نظر إليه نظرة فاحصة متابعًا:

- زَيَّك كده.

سامر باستنكار:

- زيي؟! ربنا يسامحك.

ضحك هشام مضيفًا:

- وجنّة دي بقى ماتجيش في طولها تِلْتِين الشخص ده.

سامر باستنتاج: طب كده من السهل إن كارولين تنفّذ اللي جَات عشانه واحنا قاعدين.

هشام:

- ماتقلقش.. كارولين هتكِنّ اليومين دول ومش هتقدر تعمل حاجة، باختصار هي زي الفار المستخبّي في جُحْرُه؛ لأنها أكيد عرفِت _من نفس الشخص_ إن أوصافها في كل حِتّة، ورجالتنا في مصر كلها عرفوا إنها مطلوبة وسهل نعرف مكانها بمجرد ما تخرج من جُحْرِها.

سامر:

- امم، تمام، طب... هو حضرتك عندك خطة تانية؟

هشام بحزم:

- انسَى الخطة دلوقتي وخد دول، عايز التقارير دي في أقرب وقت.

سامر وهو ينهض متناولًا منه ملفًّا قائلًا:

- تمام يا فندم.

خرج سامر مغلقًا الباب من خلفه، بينما رفع هشام سماعة الهاتف وطلب قدحًا من القهوة، ثم اضطجع في مقعده مستديرًا به يمنة ويسرة بهداوة، يفكر بتمعّن في خطوته التالية.

أخرجه من تفكيره رنين هاتفه؛ فالتقطه يرى هوية المتصل، قلب عينيه بحنقٍ، ثم ضغط زر الفتح مبادرًا:

- أيوه يا لارا؟

- هشام حبيبي ازّيك؟ إيه فينك بكلّمك من امبارح مش بترد عليّا؟ هو أنا ماوَحَشْتَكْش ولا إيه؟ ولّا شغلك.....

أبعد الهاتف عن أذنه يضغط على أسنانه، ثم قاربه إلى أذنه ما إن سمعها تهتف:

- ألو.. الو، هشام انتَ سامعني؟

هشام بعجلة:

- لارا معلش أنا مشغول دلوقتي..

صمت فجأة حينما سمع صوت شاب يناديها:

- لورا.. يلّا مستنّيكي.

هشام بعصبية: لورا؟! انتِ اتهبلتي ولا إيه، مين ده؟

لارا: فيه إيه يا هيشو؟ ده سعد زميلي، رايحين نصوّر ملازم و..

هشام وقد نفدَ صبره: إيه سعد يعني! كان من بقيّة عيلتك.

لارا باندفاع: إيه يا هشام التفكير ده؟!

هشام وقد تملّكه الانزعاج:

- أنا تفكيري كده إذا كان عاجبك، ولما تبقِي تحترِمِي الدبلة اللي لابساها تبقِي تكلّميني.

ومن ثمَّ أغلق الخط زافرًا بسخْطٍ رافعًا سماعة هاتفه صائحًا:

- فين القهوة يا ابني؟

بعد دقائق دلف الساعي حاملًا فنجان القهوة خاصته، ووضعه أمامه على مكتبه باحترام، في ذلك الحين دلف سعيد وغادر الساعي، مدّ سعيد يده إلى هشام بملف قائلًا:

- تقارير المراقبة اللي حضرتَك طلبتَها يا فندم.

هشام: على الله تكون نصفْتِنِي المرة دي يا سعيد.

سعيد: ماتقلقش سيادتك يافندم، ماسِبْتِش المكان ولا لحظة و...

هشام: ما انتَ قولتلي كده المرة اللي فاتِت والبِتّ هربت من الكنيسة وانتَ واقف.. على العموم هنشوف، اتفضل انتَ.

أشعل هشام سيجارًا وسحب نفسًا، ثم أخرجه وهو يتناول فنجان القهوة، فتح الملف بحماسة يتمنّى لو أن يجد دليلًا يفيده ويرشده إن كانت ظنونه واستنتاجاته على حق أم أنها مجرد ظنون واهية طبقًا لشخصيته واسعة الخيال، كان الملف يمثّل تقريرًا لمراقبة ذلك المنزل الذي وجدوا به الهاتف من قبل؛ فقد كان هشام شبه متأكّد من أن صاحب الهاتف سيعود إلى المكان ثانية بعد معاينة الشرطة للمنزل، وقد كان يتوقّعه شخصًا بعينه، لكن ما وجده في الصفحة الثانية في التقرير أصابه بالدهشة؛ فاعتدل في جلسته معيدًا فنجان قهوته إلى سطح المكتب.

أمر غير متوقع!

- إيه ده؟! وده كان بيعمل إيه هناك؟!

هكذا قُلِبَت الأمور رأسًا على عقب تترنّح بين زوايا عقله، ترى هل كل توقعاته راحت سُدًى؟!